

المعنى في الشعر الإسلامي

فصيدة

«أطفال البحارة

والعالم الجديد»

نموزجاً*

بقلم الدكتور:

محمد سعيد شحاته

□□ إن الأدب الإسلامي
يمثل ظاهرة بدأت تتسع
كيما تشمل الحياة
الثقافية، وبدأ هذا الأدب
يتخذ من المفاهيم
الدقيقة والتطبيقات
المستوعبة لأهدافه
وطموحاته ما يجعله
يستوي على سوقه
ويعجب الزراع،
فينزع إليه
المبدعون مشاركة
في المناسبات
الدينية حيناً
واقتناعاً
بأفلاس المذاهب
الأدبية الأخرى

حيناً آخر، وقد وضع هذا الانتشار للأدب

الإسلامي النقد - الذين يقولون بضرورته - أمام أنفسهم،
ليختبروا أفكارهم، ومدى اقتناعهم بجدوى هذا الأدب، إذ لابد أن يساير
النقد الأدب تنظيراً وتطبيقاً، ومن ثم يصبح للأدب الإسلامي فرسانه
الذين يبدعون، ورجاله الذين ينظرون له، ويكشفون عن مضامينه
ووسائله التعبيرية، وهي مهمة نأمل أن تتحقق كاملة؛ إذ إنها تقف جنباً
إلى جنب مع صمود الأمة الإسلامية في المجالات الأخرى: عسكرية
وسياسية واقتصادية، بل إن هذا الجانب الثقافي ليعد أكثر الجوانب
أهمية إذا أدركنا أن التسرب إلى عقل الأمة وكيانها يأتي من خلاله، فقد
تسرب إلى عقول المسلمين وحياتهم أفكار مثل العبث والوجودية وغيرها
من الأفكار التي تقوم على أساس مناقض لقيم الإسلام ومبادئه، تسربت
تلك الأفكار من خلال الأدب، محدثة خلخلة في عقل الأمة، وتدميراً
لكيانها، وتمرداً على تراثها، ومن ثم يصبح المتصدى للأدب الإسلامي -
كشفاً عن مضامينه، وتنظيراً لمفاهيمه - واقفاً على ثغر من ثغور
الإسلام، لن يكافئه عليه أحد إلا الله عز وجل.

* ! لتحرير: برغم ما أكدته كاتب المقال في عنوانه وموضوعه على حرصه على
المعنى، فقد كانت معالجة الشكل واضحة جداً في كل صفحات المقال بدءاً من
الثنائية الضدية حتى سرعة الإيقاع الذي جاء نتيجة لقصر الجمل.



ولقد توقف الدكتور سعد أبو الرضا أمام الشكل في الشعر الإسلامي في دراسة لقصائد العدد التاسع عشر - المجلد الخامس، وهو عدد خاص عن الشعر الإسلامي، وهو العدد المشتمل على القصيدة محل الدراسة، وأشار الدكتور سعد أبو الرضا إلى أن النص بنية كلية، فقال: «الشكل لا يتجلى إلا ملتجما بالضمون متلبسا به، وهكذا تبرز البنية الفنية لهذا الشعر الإسلامي وإذا كنت أريد أن أجلي الشكل فليس معنى ذلك إهمال المضمون، فهذان وجهان لعملة واحدة، ومن ثم فهما لا ينفصلان إلا لغاية تحليلية تكشف عنهما» (١).

وسوف نتوقف أمام قصيدة «أطفال الحجارة والعالم الجديد» للدكتور سعد دعبيس، محاولين رصد حركة المعنى في هذه القصيدة، بعد أن توقف الدكتور سعد أبو الرضا أمام الشكل في دراسته السابقة لتكتمل بذلك الصورة. ونحن إذ نقف أمام هذا النص الشعري نضع في الاعتبار أن ما نقوم به مجرد قراءة، قد تتفق أو تختلف مع قراءة أخرى، إذ أن التعدد التفسيري للنص الواحد يثريه «ويكشف عن آفاقه وأبعاده في سياق الثقافة المتغير، ويفضي هذا التعدد إلى أن النص لا يتضمن بالضرورة معنى نهائيا يأخذ شكل بعد واحد ومطلق، إذ النص لا وجود له بمعزل عن المركبات الذاتية للقراء» (٢).

١-

تتمحور حركة المعنى في القصيدة حول ثنائية ضدية يبرز أحد طرفيها مختزلا الطرف الآخر، يقول الشاعر:
صوتك الرائع أمسى
يبعد العالم أزهارا وظلا
يغسل الأشياء بالفرحة
يكسو
صمتها الموحش إشراقا ونبلا

فالصوت الرائع أمسى يبدع أزهارا وظلا، ويغسل الأشياء بالفرحة، ومعنى ذلك أن هذه الأشياء كانت على غير شاكلتها، فإذا كان قد غسلها بالفرحة فإنها كانت متشحة بالحزن ضرورة، لأنه - إذا غسلها - غير معالها، وقد بدأ طرفا تلك الثنائية يظهران في قوله «يكسو صمتها الموحش إشراقا ونبلا» إن المطلع هنا يختزل في داخله تدمير ما هو كائن لحساب ما ينبغي أن يكون، أي أنه يقوم بتكوين عالم على أنقاض عالم آخر «إن التكوين مسبق ضرورة بالتدمير، والتدمير مسبق ضرورة بالرفض والرفض مسبق دائما بالرؤية الواعية» (٣). ومن ثم نجد صعودا للذات إلى موضوعها، أما الذات فهي أطفال الحجارة، وأما الموضوع فهو تغيير الواقع إلى ما هو أفضل، وقد برز الحضور للذات منذ اللفظة الأولى في القصيدة «صوتك» ولكنها ما تلبث أن تختفي ليحتل الموضوع مساحة أوسع من الحضور، فتتوالى الأفعال المضارعة ذات الفاعل المستتر الدال على الذات، العائد على قوله «صوتك» في مطلع القصيدة فيقول:

يبعد العالم أزهارا وظلا
يغسل الأشياء بالفرحة
يكسو صمتها الموحش إشراقا ونبلا
يبعث الكون جديدا.. أثلغ الأضواء
طفلا

يمنح الإنسان إنسانا جديدا
وفصول العالم فصلا خامسا
ينساب أزهارا وظلا.

إن الذات هنا تمارس فعلها بتعديل ما هو كائن، ليس من خلال كشف عوراته، بل من خلال التوغل فيه وتغييره كلية:

يبعث الكون جديدا
يمنح الإنسان إنسانا جديدا
فالكون هو الكون، والإنسان هو الإنسان، ولكن الذات تغير ملامح كل

منهما، ومن الملاحظ أن الذات لا تبدو عنيفة بل هادئة وادعة، لاتلجأ إلى التدمير بقدر ما تلجأ إلى التغيير، ولم تنكفي الذات على جراحها تجترها وتمضغها - كما وجدنا ذلك لدى كثير من الشعراء - بل نجدها تمتلك قدرات تجعلها تجاوز أحزانها وآلامها، وتواجه العالم وتفاعلاته الداخلية والخارجية.

وتعود الذات لتمارس فعلها مرة أخرى بتعديل ما هو كائن إلى ما ينبغي أن يكون من خلال التدمير الذي صرح به الشاعر في قوله:

آه يا صوت الفدائي تدفق
لهبا نائر النبرة حرا
مزق الظلمة.. مزق

وانتزع من لبها الوحشي فجرا
حطم الأغلال.. حطم
وانتزع ما شئت قرا

واغسل العالم من زيف
وأعط العدم الفارغ فكرا
شاه وجه العالم المنهار فاكشف زيفه
واهدم على الأطلال قبرا.

إن هذا التدمير - الذي يبدو في الظاهر - ما هو إلا إعادة بناء هذا العالم كما ينبغي أن يكون، ومن ثم نجد الشاعر يصرح بأنه هدم غير الهدم المتعارف عليه في الذاكرة الجمعية، فهو في الظاهر هدم ولكنه في الحقيقة بناء، يقول الشاعر:

ولكن هدمنا جديدا
أخضر المعول هداما أغرا
شد ما تحتاج أيدينا لفأس
تمنح العالم معنى

تزرع الأيام إيماننا وطهرا
حين يبدو الكون فوضى ونشازا
يصبح الهدم انسجاما
يصبح البركان قيثارا وشعرا.

إن الشاعر يرى الهدم ضرورة من ضرورات الحياة، رغم كونه إقناء لعالم، إذ هو ميلاد لعالم آخر ينسجم مع الطبيعة

ردود ومناقشات

البشرية والفترة السوية، فيتشوف الناس إلى البركان الذي يبدو - ظاهرياً - مدمراً، ولكنه - حقيقة - ضرورة كي تستقيم الأمور، وتتوحد الذات مع موضوعها، وإن بدا ذلك التوحد منتجاً لآثار تلك الذات، يقول الشاعر:

بَعَثْنَا أَنْتَ .. صَحَوْنَا، فوجدنا
قبرنا الصامت أطيّاراً وحقلاً
غدنا الثائر في الأفق أطلاً
ذات يوم.. رن صوت
قيل: من؟
قالوا: فدائي على الأرض أهلاً
وهنا تبرز ملامح الذات - الصوت الرائع الذي ورد ذكره في مطلع القصيدة والذي قام بهذا التغيير، إنه صوت الفدائي، وإذا كان الشاعر قد ركز في بداية القصيدة على الموضوعات فإنه هنا يرسم ملامح وقسمات الذات - الفدائي، فيقول:

قيل: من؟

قالوا: فدائي على أرض الأسى أشعل
عزما
حملته عاصفات الحزن
في ليل.. شتائي الأسى
يصرخ حقداً
لم يعانق ليلة الميلاد أما
لا.. ولا عانق أشواقاً ووجدنا
لم يشاهد غير ليل
يشبع الأنجم أكفاناً وواداً
أرضعوه الصمت والصحراء
ما عانق أزهاراً ومهداً
إن ملامح الذات وقسماتها تكشف عن مدى
الحصار الذي تعانيه، فهو حصار محكم
يخنقها، ويفجر داخلها طاقات الثورة
والتغيير، فهذا الفدائي قد حرّمه أعداؤه من

أمه ليلة الميلاد، وكثرت حوله جثث القتلى، فكان كل ما شاهده هو الأكفان والوادي، والإخراج من الدار والوطن والدم، وإرغامه على الصمت، فتساوت لديه الحياة والموت، فكانت الثورة على الأوضاع التي تحاصره وتخنقه، وتحاول اقتلاع جذوره، ويركز الشاعر هنا على جانب الفقد لدى الفدائي، إذ فقد أمه (لم يعانق ليلة الميلاد أما) كما فقد معاني الحياة (لم يشاهد غير ليل يشبع الأنجم أكفاناً وواداً)، وفقد كذلك الإحساس بالجمال والأمان (ما عانق أزهاراً ومهداً)، أما فقد الوطن فقد كان أشد أنواع الفقد، إذ حاولوا أن يكون هذا الفقد مكوناً من مكونات شخصيته، ويبدو ذلك من خلال الفعل [أرضعوه] في قوله: [أرضعوه الصمت



أطفال الحجارة.. والعالم الجديد..!

هو ذلك الرشح الأسى
يُدْعِي العالم.. زهراً وفلاً؟
يُخْسِلُ الأشياءَ بكثرة
يُخْسِلُ
حديقة النوح.. إشراقاً ومُهلاً؟
يُخْسِلُ لكون حديقته
لذخ الأشجار.. حلقاً؟
يُخْسِلُ الإنسان.. بسطاء خديماً
وقصور العام.. فخمة
خاصة
يُخْسِلُ.. أزهاراً.. وفلاً؟
يُخْسِلُ.. أنت.. منحوناً.. فوجدنا
قبرنا الصامت.. أطيّاراً.. وحقلاً؟
لحلق.. ذات أملاً؟
فانتفضت.. ورثنا
شئنا الثائر.. في الأرض.. أملاً؟
ذات يوم.. رن صوت
قيل: من؟
قالوا:
فدائي على الأرض أهلاً؟
فوجدنا.. وأصل صمتنا
وبخاخ.. ثائرة الأنجم.. غنى
وفاحة من مدراج،
وإلى الأرض.. يمشي
في خيام الليل.. يمشي
نظراً.. لنزلاً.. وفلاً؟
يُخْسِلُ الأنفان للساكنين.. قديراً ومُهلاً؟
ذات يوم..

في يقاب.. من حياً
مُزَيَّجُ الإحصاء.. للظلمة.. وفلاً؟
يُخْسِلُ.. من؟
قالوا:
فدائي.. على أرض الأسى.. أشعل
عزماً..
حلقته عاصفات النوح..
في ليل.. شتائي الأسى
يصرخ.. حلقاً؟
لم يعانق ليلة الميلاد.. أما
لا.. ولا عانق أشواقاً ووجدنا
لم يشاهد غير ليل
يُخْسِلُ.. أنت.. منحوناً.. فوجدنا
قبرنا الصامت.. أطيّاراً.. وحقلاً؟
لحلق.. ذات أملاً؟
فانتفضت.. ورثنا
شئنا الثائر.. في الأرض.. أملاً؟
ذات يوم.. رن صوت
قيل: من؟
قالوا:
فدائي على الأرض أهلاً؟
فوجدنا.. وأصل صمتنا
وبخاخ.. ثائرة الأنجم.. غنى
وفاحة من مدراج،
وإلى الأرض.. يمشي
في خيام الليل.. يمشي
نظراً.. لنزلاً.. وفلاً؟
يُخْسِلُ الأنفان للساكنين.. قديراً ومُهلاً؟
ذات يوم..

يُخْسِلُ.. كعالم.. أكفاناً.. وفلاً؟
يُخْسِلُ.. من؟
قالوا:
فدائي.. على أرض الأسى.. أشعل
عزماً..
حلقته عاصفات النوح..
في ليل.. شتائي الأسى
يصرخ.. حلقاً؟
لم يعانق ليلة الميلاد.. أما
لا.. ولا عانق أشواقاً ووجدنا
لم يشاهد غير ليل
يُخْسِلُ.. أنت.. منحوناً.. فوجدنا
قبرنا الصامت.. أطيّاراً.. وحقلاً؟
لحلق.. ذات أملاً؟
فانتفضت.. ورثنا
شئنا الثائر.. في الأرض.. أملاً؟
ذات يوم.. رن صوت
قيل: من؟
قالوا:
فدائي على الأرض أهلاً؟
فوجدنا.. وأصل صمتنا
وبخاخ.. ثائرة الأنجم.. غنى
وفاحة من مدراج،
وإلى الأرض.. يمشي
في خيام الليل.. يمشي
نظراً.. لنزلاً.. وفلاً؟
يُخْسِلُ الأنفان للساكنين.. قديراً ومُهلاً؟
ذات يوم..

شعير.. في صمتنا

٢١

٢٢

والصحراء] لقد مارس الأعداء مع هذا
الفدائي كل معاني القهر والفقد، ومن ثم كان
اتجاهه إلى الثورة والتدمير، إذ أنه يحاول
إيجاد مكان له تحت الشمس، يحاول أن
يشعر بانتمائه ووجوده، وخلاصة القول أنه
يحاول الدفاع عن هويته.

إن حركة المعاني في القصيدة حركة دائرية
ومتوجة، فالشاعر يبدأ بإبراز عنصر
التغيير، وينتهي بإبراز العنصر نفسه، وبين
البداية والنهاية تدور حركة المعنى، وهي
حركة متموجة إذ يعلو صوت الشاعر حيناً
ويهدأ حيناً آخر، وهو في علوه وهدوئه
لا ينسى أنه يدور حول معنى واحد: هو
ضرورة التغيير، سواء عن طريق التوغل
داخل الأشياء وتغيير ملامحها أم عن طريق
تدميرها لتستقيم الأمور، وتستقر الأوضاع،
ويعود الحق إلى أهله.

وفي أثناء توجعها تبرز عناصر وتخفي
أخرى، ولكن العناصر المخفية ما تلبث أن
تظهر، وتخفي التي كانت بارزة، كل ذلك في
حركات محسوبة من الشاعر، ومؤدية المعنى
تماماً.

إن القصيدة كلها عزف على وتر العنوان
الذي يدور حول «أطفال الحجارة والعالم
الجديد»، ولذا كان التركيز على الذات التي
هي [أطفال الحجارة] والتغيير الذي تحدثه
تلك الذات وهو [العالم الجديد]، ومن ثم
غابت كل العناصر أو غيبت لحساب هذين
العنصرين، فنجد السائل والمسئول عن
الفدائي قد جاء في صورة لاتدل على تحديد
يكشف عن ملامحهما وذلك في قوله:

ذات يوم.. رن صوت

قيل: من؟

قالوا: فدائي على الأرض أهلاً

فقد عبر الشاعر عن السائلين بصيغة
المبنى للمجهول [قيل] كما عبر عن المجيبين
بصيغة الغياب [قالوا]، ويعود الشاعر إلى
الطريقة نفسها في قوله:

ذات.. يوم في بقايا من خيام

مزق الإعصار للظلمة وهماً

قيل: من؟

قالوا: فدائي على أرض الأسى أشعل
عزماً

إن هذا التغيب أو الطمس لجميع الملامح
يمثل سمة يرتكز عليها الشاعر كي تظل
الذات والموضوع عنصرين مسيطرين على
مسار القصيدة.

٢-

وقد صاحب الإيقاع حركة المعنى -
هدوءاً وسرعة - ويتضح ذلك عند تأملنا
لمطلع القصيدة: حيث نجد الشاعر يتحدث
عن التغيير دون عنف، ولذلك جاء الإيقاع
هادئاً كالنهر المتدفق سلاسة، وعندما
ينتقل الشاعر إلى الحديث عن الثورة
والتدمير يأتي الإيقاع سريعاً هادراً متفقاً
في ذلك مع السرعة التي تتصف بها حركة
الفدائي، يتضح ذلك في قول الشاعر:

آه يا صوت الفدائي تدفق

لهباً - نائر النبوة حراً

مزق الظلمة.. مزق

وانتزع من ليلها الوحشي فجراً

ولكن هذا الإيقاع السريع - الذي يشبه
الأنفاس المتلاحقة - يعود إلى الهدوء مع
عودة المعنى إلى التغيير دون عنف في
نهاية القصيدة إذ يقول الشاعر:

شد ما تحتاج أيدينا لفأس تمنح
العالم معنى

تزرع العالم إيماناً وظهرنا

حين يبدو الكون فوضى ونشازا

يصبح الهدم انسجاما

يصبح البركان قيثارا وشعرا

وقد أنتجت سرعة الإيقاع وبطأه جمل
تتناغم مع النسق التعبيري، إذ جاء
الجميل مع الإيقاع السريع قصيرة أو
مبتورة، كما في قوله:

بعثنا أنت.. صحنونا فوجدنا

قبرنا الصمت أطيّاراً وحقلاً

لحظة أنت أطلت

فانتفضنا - ورأينا غدنا الثائر في
الأفق أطلا

فمن الملاحظ سرعة الإيقاع التي نتجت
عن قصر الجمل حيناً، واستخدام حرف
العطف الفاء الدال على الترتيب والتعقيب
حيناً آخر، وقد صاحبت سرعة الإيقاع
حركة المعنى. أما الجمل مع الإيقاع البطيء
فقد جاءت طويلة كاملة، يتضح ذلك في
قوله:

صوتك الرائع أمسى يبعد العالم
أزهاراً وظلاً

يغسل الأشياء بالفرحة

يكسو صمتها الموحش إشراقاً ونبلاً

يبعث الكون جديداً، أثلج الأضواء
طفلاً

يمنح الإنسان إنساناً جديداً وفصول
العام فصلاً خامساً

فإننا نلاحظ بطء الإيقاع التلج عن طول
الجمل، واستخدام التراكيب الدالة على
الهدوء، والتي تميل إلى الحكي الذي
يقتضي وقتاً أطول.

لقد استخدم الشاعر العديد من الوسائل
المتناغمة التي دلت على حركة المعنى
وتوجيهها، ذلك أن القول الشعري «يعتمد
على نظام إشاري يختلف عن النظام الذي
يستخدمه المتكلم العادي أو حتى الشاعر
نفسه في حياته اليومية، ويقوم هذا النظام
على مصاحبات وتقاطعات غير متوقعة
تجمعها وحدة متجانسة تختلف عن
الوحدة التي تجمع لغة الكتابة النثرية» (٤).

■ المصادر والمراجع:

- ١- مجلة الأدب الإسلامي - المجلد الخامس -
العدد التاسع عشر ص ٢٤
- ٢- النص ومشكلات التفسير. د. عاطف جودة
نصر - لونجمان - القاهرة ط ١ سنة ١٩٩٦ م ٩٦.
- ٣- مناورات الشعرية. د. محمد عبد المطلب - دار
الشروق - القاهرة - ط ٢ ص ٢٠.
- ٤- إضاءات النص: قراءات في الشعر العربي
الحديث - اعتدال عثمان - الهيئة المصرية العامة
للكتاب ط ٢ سنة ١٩٩٨ م - ص ٩.